في الفلسفة الحديثة

مصادر العلم الحديث

الدكتور ابراهيم ناجي

لي سؤال أوجهه اليك ايها القارىء العزيز : أتعرف معنى هذه الانسانية الصاخبة القلقة . كيف نشأت ؟ وكيف تطورت ؟ لا اقصد ان تعود الي فصول التاريخ والجغرافية . أو ان تعيد الي فصولاً في علم الاحياء أو الاجتماع . انما اقصد ان تخبرني على وجه التحقيق ما تراه في تطور العقل البشري ! أتظن ان العقل البشري ، ذلك العقل العجيب الذي فهم بالمنطق التجريبي أعظم حقائق الكون ، وأدرك قوانين الضرورة التي تسيطر عليه ، أتظن هذا العقل يمشي الآن بالانسانية في طريق الخير ؟ واذا كنت لا تعتقد ذلك فهل تعرف لماذا يكون النافع ضاراً والذي تتوسم فيه الخير قد يكون مؤدياً للشر ؟ ثم سؤال آخر ..

انت تدرك ايها القارىء الكريم ما تعلمته في التاريخ أن انسانك قد وثبت وثبتها الكبرى بعد عصر النهضة . وان البشرية كانت تغط في نوم عميق قبل ذلك اجيالاً ؟ ما الذي يجعل البشر يدانون ذلك النوم العجيب ؟ وعلى أي نداء يستيقظون ؟ اذا كنت تريد ان تلم بدقائق هذا الموضوع الهاماً جداً فعليك بكتابين من اعظم كتب العالم . الاول كتاب « العقل في دور التكوين » تأليف روبنسون « Mind in The Making » وكتاب « العلم والعصر الحديث » تأليف هوايتهد « Science And the Modern World » واحب ان ارجز لك في هذا البحث علاقة الفلسفة بالعلم وهل نحن الآن في عصر يصلح للفلسفة أو هي قد مالت دولتها ؟

ما لا يختلف فيه الفلاسفة والعلماء المصلحة وأسير وكل من جاء بعدهم انهم وجدوا أخذاً عنهم أو نسجاً على غرارهم أو تكملة لما بدأوا به . حقيقة مضت حقب من الاجيال نمي فيها أفكارهم . وعملت البشرية بفكرهم . وكان لرأي لغيرهم على هذا الترتيب في التاريخ : اثروبان — القسطنطينية (القرن البزنطي) وبغداد . العصور الوسطى أي عصور الظلمة الى القرنين السادس والسابع عشر حين استيقظ العقل البشري من غفوته الطويلة فأخذ المفكرون والمبتكرة يرجعون الى مخلفات أثينا . ويراجعون آراء بيثاغورس وأفلاطون وأرسطو

من أول الامر كان الاعتقاد ثابتاً بوجود نظام طبيعي ثابت يحكم الاشياء كلها ويتدخل في صميمها . كان الاعتقاد ثابتاً بوجود قوانين أزلية تسيطر على الوجود ويظهر ان الانسان لاعتقاده الفطري بذلك كان مقلداً لذلك النظام الطبيعي فإذا كان أثر أثينا يزول حتى أحد الرؤساء يشرعون قوانينهم المشهور وهذا القانون مثل أعلى في شيئين : الاول في استقائه من فلسفة أثينا والثاني في جعل الترتيب الطبيعي الذي يشعر الانسان بوجوده في القوى الخفية المسيطرة ، مسيطراً كذلك على أحوال البشر ومعايشهم وان كان الفرق ظاهراً بين قوى أزلية وقوى مرتبة بأيدي البشر . وزاد هذا الترتيب الطبيعي علواً على مدى الاجيال فصار ترتيباً قاسياً لا يلين ولا يناقش (وذلك في العصور الوسطى) ومهما يكن من أمر تلك العصور المظلمة فإنها من الثابت انها كانت تدريباً للبشرية على النظام والطاعة . ولكن هذا النظام الصارم الذي قوامه رد جميع الظواهر الى قوى مسيطرة حديدية المنطق كان يقابله تفاعل كبير . ففي أواخر القرن السابع عشر أخذ العقل البشري يستيقظ شيئاً فشيئاً من السبات الذي طال عليه ، وأخذ يناقش من جديد تلك القوانين لتسيطرة . وجميع الخوارق نردها الى قوى مجهولة لا ندرك كنهها . أليس من الصواب ان نرد فنناقش تلك الحقائق الثابتة للقرون عن في مناقشة الامر العادي من جديد فهم لغير العادي وردها الى مصدر واحد

أخذ العقل البشري يناقش من جديد الحقائق التي مرّت على الاجيال صارمة قاسية المنطق لا تلين . .

هذا هو المنطق العلمي الجديد . أوله إيمان بوجود نظام طبيعي للوجود والثاني مناقشة الحقائق التي تبدو لاغلب الناس مادية مألوفة

ومن هذا إيمان بقوة العقل البشري وقدرته بمجرد التفكير التجريدي الوصول الى قوانين الكون . كانت هذه النقطة في زمنين متقاربين وفي أمم متقاربين . جاليليو وديكارت في الطبيعة . العلم أخذ يناقش الحقائق المقررة من جديد . والفلسفة من جديد ديكارت أخذت تقول : اني أفكر فاذن أنا موجود ؟ فكما كان يونن ينظر الى الكون نظرة الجامدية كان ديكارت يرجع الفلسفة من أوضاعها التي استقرت عليها في الماضي بوجه عام ليضع على أساس الحاضر فلسفة جديدة . ومن العجيب أثر الرياضيات في ذلك التفكير . فأغلب هؤلاء المفكرين رياضيون لا يستغني عنها هيرم . وقد يكون كثير من الناس أثر الرياضيات في تفكيرهم البشرية ولكن الواقع ان معنى الرياضيات الفلسفي هو اتضاح التفكير التجريدي البحت . فان قوانين الرياضة ومعادلاتها قوانين عامة . وما هو معنى الجبر ؟ ما معنى س ، ص ؟ معنى ذلك ان تكون تلك القوانين [illegible]

بشخوص معينة هذا هو معنى التجريد . وكل قانون من هاته القوانين مفتاح لقانون آخر، حتى يمكن ان يقال ان هاته القوانين سلسلة متناسقة من حلقة كبيرة كقصر كبير متعدد الحجر والسراديب . كل مفتاح يفتح باباً جديداً ويؤدي الى حجرة جديدة . وخلاصة هذه النماذج وتلك المفاتيح التي اهتدى اليها المنطق بغير حاجة الى الشخوص والمحسوسات ذلك النظام المتناسق الرياضي الذي اسميه « الوجود » . ولكن مع الأسف قد سيطرت على الاجيال حتى بعد عصر النهضة فكرة كئيبة . هذا النظام ما هو ؟ أنظام مادي غير مسؤول؟ هذه الفكرة المادية التي تحاطت الفكرة التي وراءها ، وهي فكرة « القوة الحيوية » التي ذكرها أفلاطون وعاد اليها برجسون اليوم — أعطت (اي الفكرة المادية) للعالم معنى الوجود الذي يقوم عنانه قوة ميكانيكية عاشية الى ان وجد الفكر البشري اليوم في مأزق يضطره اضطراراً الى طرح هذه الفكرة المادية . واليك البيان : انتهى المنطق التجريدي البحت الى حقيقة هائلة . بل الى حقيقتين الاولى حقيقة التكرار والثانية حقيقة الاهتزازات . وما الثانية الا صدى الاولى . فكل شيء في الحياة يتكرر . هذا التكرار اساس الوجود والحياة ولا يمكن لانسان ان يتذكر شيئاً اذا لم يتكرر . فالفصول تتكرر والقلب يكرر نبضاته والموجة لا ترسم الا بتكرار خطوطها . ما هو النور ؟ ما هو الصوت ؟ ما هو اللحن الموسيقي ؟ ما هذه كلها الا اهتزازات متكررة . وليس لموجة من موجاتها قيمة في وقت معين وانما قيمتها في التكرار ونحن عندما نحلل عناصر الحياة ننتهي الى الالكترونات والى البروتونات ثم الى ما يسمى الكوانتم اي دقيقة « الطاقة » او الكهرباء التي باهتزازها وانطلاقها تكون البروتونات فالذرات . ولكن هذه الذرات عندما نشاهد سياريها النيبية تجدها تتنقل ولكنها لا تسير الفراغ الذي تراه اعيننا . فهل هناك إذن فراغ آخر ؟ ها هي ذي الفلسفة تمد يدها لتخرجنا من مأزقنا . وتقول لنا كلا . هناك فراغ آخر وراء الطبيعة تسبح فيه تلك الذرات . وهذا الفراغ لا نراه أعيننا ولا تستطيع أن تراه . ولكن العلم يجيء محتجاً ويقول ان الذرات ترجع الى تلك الحرارة . اني أسير لكم ألم تهتدوا الى التكرار والاهتزازات ؟ ألم تقولوا ان كل ذرة لا معنى لها ولا وجود الا بذلك التكرار . ولا تكون الحياة أمواجاً من الطاقة . وكل موجة في [illegible] وكيانها وذلك تموتها في مكان . ثم تختفي في آخر ثم تعود للظهور في غيره عندما تستكمل اهتزازاتها وزمانها

ما معنى هذا ؟ معنى رائع . ان هذه القوى المفكرة التجريدية البحتة التي تكون سبب الاشياء الخاضعة للمحسوسة المادية . أو طبقاً لرأي السير جيمز جينز « الوجود المفكر » هذا هو الله . ما معنى هذا أيضاً ؟ ان العقل هو كل شيء . وانما يعبر « التجريد » يمكن ان نخلق

من العوالم الجامدة وغير الجامدة ما تشاء . وهناك معنى كبير غير ذلك يستطيع المفكر أن يستيقظ ليشك ويراجع واعتماداً على قوته أمكن أن يناقش فيصل الى ادراج الحقائق . فكثرت المخترعات وازدانت الدنيا بآثار المفكرين ونتاج أدمغتهم . وإلا فما حاجة الفرد الانساني ؟ هل صار الانسان أصفى غرائز وأطهر قلباً وأصفى نفساً ؟ قد لا يكون هذا ! فالعقل البشري يشب وثباً . والنفس الانسانية متخلفة في شعاب البهيمية الاولى . وهذا هو للاسف مصدر الشقاء . فأين العقري الذي يدعو الى مراجعة الاخلاق والمعتقدات ؟ اني قد أتخيله ولكن لا ألمسه فهو بعيد بل هو لم يوجد بعد . وعند ما يوجد فقد يشعر العالم بدين من الزمان الأكبر الذي يتوقف على السعادة التي فكر فيها أفلاطون والتي ينتهي اليها تفكير الانسان . السعادة والروح على السواء

فكرة ضائعة

للشاعر الفرنسي سولي پرودوم

فيم أفكر ؟ في هذه الساعة
وفي أيّ حلم جميل قد توارى...

هل أملك دموعاً لتبكي عليه ؟
وقد تركني دهشاً محيّراً .

هذه السعادة التي لم يكن عمرها الاّ لحظة ،
لا تقدر جهودي على استرجاعها .

لم أتذوّق فرح الوجود الاّ في الحُلم
وهذا الحلم — يا أسفاه — قد ولى

[نقله خليل هنداوي]